ما بين الناموس والنعمة

بقلم: شكري حبيبي

في نقاش دار مؤخرا بيني وبين أحد دعاة شهود يهوه العرب، استغرب كثيرا قولي أننا نحصل على الخلاص الكامل عن طريق نعمة الله المجانية. وقال إن هذه هي المرة الأولى التي يسمع بها هكذا تعليم. أما مرافقته فقد تساءلت: من أين أتيت بهذا التعليم الجديد؟ وكان جوابي بكل بساطة: هذه هي المسيحية الحقة، التي أتى بها الرب يسوع المسيح نفسه، وعلّم بها الرسل الأوائل، وهذا هو تعليم العهد الجديد من الكتاب المقدس. وكهؤلاء مازال الكثيرون مع الأسف، من المسيحيين وغير المسيحيين لا يدركون حقيقة المسيحية، وحقيقة نعمة الله المجانية لنا نحن البشر الخطاة. ومازالوا يظنون أن بإمكانهم إرضاء الله عن طريق العمل لتطبيق وصاياه وشرائعه. لكن ماذا تخبرنا كلمة الله المقدسة في هذا المجال؟

لقد دوّن لنا البشير يوحنا في الأصحاح الأول من بشارته هذه الآية الرائعة: "لأن الناموس بموسى أُعطي. أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا." (يوحنا١:١٧) لا نخطئ إذا قلنا أن هذه الآية تلخص لنا وبكلمات معدودة الكتاب المقدس كله. فلقد أعطى الله الناموس أو الشريعة عن طريق كليمه النبي موسى. وكان لله عدة أغراض أراد تحقيقها من خلال الناموس. لكن هدف الله منذ البداية كان أن يعلن نعمته ويغدقها علينا نحن البشر الخطاة، عن طريق المخلص الرب يسوع المسيح وعمله الكفاري على الصليب، وقيامته الظافرة من بين الأموات.

أراد الله من إعطائه الناموس أو الشريعة للإنسان، أن يكون أولا المرآة التي يرى من خلالها الإنسان حقيقة نفسه الخاطئة. كتب الرسول بولس قائلا:

".. بل لم أعرف الخطية إلا بالناموس. فإنني لم أعرف الشهوة لو لم يقل الناموس لا تشته. " (رسالة رومية٧:٧) فلكي يعرف الإنسان نفسه، أنه إنسان خاطئ وعاصٍ، وبعيد عن الله، كان لابد لله أن يضع الشريعة، التي تكشف خطاياه وعيوبه. فالشريعة هي المرآة التي ترينا كم نحن خطاة.

وكشف الناموس ثانيا مدى عجز الإنسان عن فعل الصلاح. لقد وجد الإنسان نفسه أمام شريعة الله، أنه عاجز عن السير بموجب هذه الشريعة. فهو لا يستطيع ومهما بذل من جهد، إلا أن يخطئ. وكم من مرة نحاول عبثاً السير بموجب شريعة الله، وتجنب فعل الشر، فلا نحصد سوى الخيبة والمرارة. ويعود السبب لأن الخطية تستعبدنا، ولا نستطيع إلا تنفيذ أوامرها. ولسان حالنا جميعا هو كما عبّر الرسول بولس، عندما علّق على موضوع الناموس ومدى عجزنا إذ قال: "فإني أعلم أنه ليس ساكن فيّ أي في جسدي

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

شيء صالح. لأن الإرادة حاضرة عندي وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد. لأني لست أفعل الصالح الذي أريده بل الشر الذي لست أريده فإياه أفعل." (رومية٧:١٨و١٩) أجل إن شريعة الله الصالحة كشفت مدى عجزي عن فعل الصلاح، والسبب لأن طبيعتي فاسدة ومستعبدة للخطية.

ولعل الأمر الخطير أن الناموس ثالثا يدين الإنسان. فبما أننا خطاة، وعاجزون عن تجنب فعل الشر. فلا بد أن ندان بحسب الناموس. لأن "كل من أخطأ في الناموس فبالناموس يدان."(رومية٢:١٢ب) و " لأن جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة لأنه مكتوب ملعون كل من يثبت في جميع ما هو مكتوب في كتاب الناموس ليعمل به." (غلاطية٣:١٠) أي أن الناموس لا يرحم الإنسان لكنه يدينه. وكانت النتيجة أن الناموس بدل أن يكون بركة صار لعنة للإنسان.

هذه كانت بعض الأغراض التي قصدها الله من إعطائه للناموس أو للشريعة في القديم من خلال النبي موسى. لعل السؤال الذي يطرح نفسه هو: إذا كانت هذه هي الأغراض التي قصدها الله من الناموس فلماذا مازال البعض يصرّ على التمسك به؟

ويحاول جاهدا السير بموجبه؟

لقد أعطى الله الناموس بواسطة النبي موسى كما ذكرنا. "أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا." فما هي هذه النعمة التي أتى بها الرب يسوع المسيح؟ وماذا تعني؟

تعني كلمة النعمة، عطية مجانية أو هدية تُقدم إلى شخص لا يستحقها، ودون توقع أي مقابل. وهي أيضا ما أُنعم عليك أو أُغدق بدون استحقاق أو سبب. إن الهدية التي يقدمها أحدهم إلى صديق له بمناسبة معينة، أو إلى إنسان آخر لأنه أجزل له معروفا لا تعتبر نعمة. وكذلك إن الهدية التي تقدم لقاء عمل قمنا به تعتبر أجرة لنا، وليست نعمة أُغدقت علينا. ولكن أن يقدم لي أحدهم مبلغا كبيرا من المال أو شيئا ثمينا، ودون أن أكون مستحقا، أو دون أن ينتظر مني شيئا في المقابل، فإحسانه هذا يعتبر نعمة وهبها لي.

وعلى هذا المنوال نقول: إن نعمة الله تعني عطية أو هبة الله المجانية بالخلاص الكامل، لنا نحن البشر الخطاة، عن طريق المخلص الرب يسوع المسيح. إن نعمة الله أساسها محبة الله الكاملة. فالله أحبنا وأنعم علينا ببركاته الروحية والسماوية، بالرغم من أننا كخطاة غير مستحقين لها. لقد طالب الناموس الإنسان بالعمل لكي يحيا، رغم عدم استطاعة أي منا العمل به. لكن نعمة الله أتت لكي تقدم لنا قبول الله ورضاه مجانا، وبدون أي مقابل. والسبب لأن الله قام بالعمل عوضا عنا نحن المذنبين، من خلال عمل الفداء الذي قام به الرب يسوع المسيح. حقا ما أعظم محبة الله لنا نحن البشر الخطاة، وما أدهش نعمته.

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

ولهذا كتب الرسول بولس قائلا: " متبررين مجانا بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح." (رومية٣:٢٤) إذن إن الله يبررنا، أي يجعلنا أبرارا، من خلال عمل الفداء الذي قام به الرب يسوع المسيح على الصليب. وهذا التبرير بحد ذاته هو النعمة أو العطية التي يقدمها لنا الله مجانا، وبدون أي مقابل.

أجل، هذا هو الخبر السار، البشارة المفرحة، التي كرز بها الرسل الأوائل، أن الله عن طريق محبته العظمى ونعمته، يغفر ذنوبنا ويجعلنا أبرارا أمامه. فهل هناك أعظم من هذه العطية؟

لعل السؤال الآن هو: كيف بنا نحصل على نعمة الله؟ بالطبع إن نعمة الله هذه متوفرة للجميع، لكن ليس الجميع يحصلون عليها. ولقد أجابنا الرسول بولس عن هذا السؤال عندما كتب يقول: "لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم. هو عطية الله. ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد." (أفسس٢:٨و٩) يبدو واضحا من هذه الآية المقدسة، أن الحصول على خلاص الله الكامل، لا يتطلب منا القيام بأي مجهود أو عمل معين، بل هو هبة مجانية ونعمة يغدقها علينا الله، عن طريق الإيمان، والإيمان فقط. فعندما يؤمن الإنسان إيمانا قلبيا صادقا، بعمل المسيح الكفاري من أجله على الصليب، وقيامته الظافرة من بين الأموات، يهبه الله الخلاص الكامل. ولنلاحظ تشديد الرسول بولس على أن هذا الخلاص هو نعمة مجانية لا نستحقها، نحصل عليها بالإيمان، وليس بالأعمال كيلا يفتخر أحد.

فهل يوجد أوضح من هذه الحقيقة الكتابية؟ وهل يستطيع البعض تجاهلها ونكرانها؟ وهل يواصلون الزعم أن عليهم التمسك بأعمال الناموس لكي يرضوا الله أو يحاولون الحصول على خلاصه؟

نقطة أخيرة هامة: إن نعمة الخلاص هذه المقدمة لنا مجانا، هي عطية أكيدة وثابتة وأبدية، وليست قابلة للرد أو للتغيير. ولهذا كتب البشير يوحنا قائلا: "وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه. الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله." (بشارة يوحنا١:١٢و١٣) إن كل من يؤمن بعمل الفداء الذي قام به الرب يسوع المسيح، لا يهبه الله عطية الغفران والتبرير فحسب، بل يعطيه أيضا سلطانا أن يصير من أولاده. وبتعبير آخر يتأكد من

نواله الخلاص الكامل والنهائي.

فهل تود قارئي أن تحصل أنت أيضا على نعمة الله المجانية هذه؟ وأن تصبح من أولاد الله المخلّصين؟

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service